المصدر: صـــوت الامـــة
التاريخ : ٢٠٠٣/٦/٢٩

الأسطـــورى

هناك حاكم يهتم بما سيقوله التاريخ عنه.. يضحى بكل شىء من أجل أن يظل عظيما ورائعا وعبقريا ومنجزا.. وزعيما، وهناك حاكم لا يهتم كثيرا بالصورة التى تستقر عنه لدى الناس لا فى عهده.. ولا فيمن يأتى من بعده يأخذ القرار الذى يريده.. فى الوقت الذى يريده.. حتى لو أغضب الجميع وأحزنهم وصادر النوم من عيونهم.. فما دام الحاكم يعتقد أن ما ذهب إليه صحيح.. فلا أهمية لشىء.. ولا أهمية لأحد.

وليغرق الطوفان كل من يرفع رأسه بالمعارضة.

وفى تاريخ مصر يأتى السادات على قائمة الزعماء الذين لم يضعوا للتاريخ اعتبارا فى حساباتهم.. وهى قائمة طويلة تضم محمد على وإسماعيل.. فجميعهم حققوا انجازات هائلة.. وأخذوا قرارات صادمة.. وأحدثوا تغييرات قلبت المجتمع المصرى رأسا على عقب.. ورغم انهم كانوا يعلمون أن أعدادا ضخمة من المصريين ترفض قراراتهم وتستنكر ما يفعلونه.. لكنهم مضوا فى قراراتهم وليشرب من غضب من البحر ولم يفعلوا ذلك على طريقة عبدالناصر عندما هدد أمريكا بأنها إن لم تعجبها قراراته فلتشرب من البحر الأبيض فإن لم يكفها فلتشرب من البحر الأحمر.. فجعلوه يشرب من البحرين معا . ولكنهم سقوا معارضيهم من البحر بالفعل حتى شبعوا.

عن نفسى لا أخفى اعجابى الشديد بالرئيس السادات ورغم أن الثقافة السياسية السائدة فى مصر تجعل من يعجب بالسادات يلتزم الصمت ولا يصرح بذلك خشية أن يتهم بالعته أو البلاهة. لكننى لا أخفى ذلك بل اعتبر السادات من الزعماء العظام الذين حكموا مصر.. وفهموا الشعب المصرى.. كان واضحا للغاية لم ينافق الناس ولم يجاملهم.. وربما كان عيبه الذى لن أقول الوحيد.. أنه لم يحكم مصر كرئيس دولة.. ولكنه حكمها كعمدة أو ابن بلد.. أراد أن يشعر المصريين أنه مثلهم.. يعيش كما يعيشون.. ويتحدث كما يتحدثون.. فاستصغروا شأنه واحتقروا كلامه.. وجعلوا منه أضحوكة.. وقد فعلنا ذلك لأن اخلاق العبيد تتمكن منا حتى النخاع.. فالحاكم القوى صاحب القبضة القوية نخشاه ونخضع له ونرفعه إلى درجة الألوهية.. أما الذى يتباسط معنا. فنجرجره فى الشارع ونتعامل معه وكأنه صديق يجلس معنا على القهوة ندخن معه الشيشة ونلعب معه الطاولة.. ولا مانع أن نسخر منه فى النهاية.

لقد قرر السادات أن يصنع تاريخه كما يريد هو .. لا كما أرادته الأقدار، ركب حكم مصر بعد عبدالناصر وكان سهلا عليه أن يسير على خطى عبدالناصر ويواصل سياسة الجعجعة الوطنية التى كانت تنتهى دائما بمصيبة.. جاء والكراهية وصلت مداها لإسرائيل واليهود.. لكنه وضع كل ذلك جانبا وقرر أن يعقد صلحا مع إسرائيل، وفى ١٩٧١ كانت خطته أن تنسحب إسرائيل جزئيا من سيناء فى مقابل أن يفتح هو قناة السويس للملاحة العالمية.. لكن لم يستجب أحد من إسرائيل.. فهو خليفة لرئيس مهزوم ويقود بلدا مهزوما.. فليس من حقه أن يملى شروطه.. بل ليس أمامه سوى أن يخضع.. سحب السادات قناع الفلاح الطيب الذى ارتداه.. ووضع مكانه قناع الفلاح الماكر.. رنت فى أذنيه كلمة كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية أن المهزوم ليس من حقه أن يفرض شروطه.. فقرر أن ينتصر!..

فعلها السادات وانتصر.. وكان انتصاره هو سر قوته.. وبعد أن كان يستمد شرعيته من انه خليفة عبدالناصر.. أصبح يستمد شرعيته من أنه الرئيس المنتصر.. الذى محا العار وأعاد الكرامة ومسح الهوان..

ووضع العسكرية فى مصر فى مكانها الذى يليق بها.. ورغم أن قرار السادات بخوض حرب أكتوبر كان أخطر قرار فى تاريخ مصر الحديث.. لكن دراويش عبدالناصر، حاولوا أن يحرموه من عبقرية انجازه.. فأشاروا إلى أن عبدالناصر هو الذى استعد وخطط وجهز وحدد موعد العبور.. وأن السادات جاء على الجاهز واخذ ذلك كله لحسابه..

ولم يكن هذا كلام السياسيين الذين اختلفوا مع السادات فقط.. ولكنه أصبح الآن كلام الناس فى الشوارع.. ولازلت اذكر ما قاله لى صديق ناصرى يجرى عبدالناصر فى روحه كما يجرى الدم فى العروق عندما كنا نسمع أغنية عبدالحليم حافظ الرائعة «عاش اللى قال للرجال عدوا القنال» نظر إلى بتأثر شديد وقال: شوف عبدالحليم بيغنى لعبدالناصر إزاى؟ قلت له ولكن الأغنية للسادات فهو الذى عبر القناة.. فقال غاضبا: مستحيل.. فهذه الروح التى يغنى بها عبدالحليم لا يمكن أن تكون إلا لعبدالناصر.

لقد كان السادات فى كل قراراته صادما.. قادرا على الإدهاش.. لدرجة جعلته يدخل كتاب الأساطير من أوسع أبوابه.. بل أصبح بما فعله بنفسه وبشعبه شخصية أسطورية.. ليس بما فعله فقط. ولكن بما كان يقوله ويتمثله فى أحاديثه أيضا.. فقد سخر من استضعاف خصومه له فى ١٥ مايو وأعلن أنه سيجلس تحت الشجرة أمام النهر لينتظر جثثهم تمر أمامه.. وكأن هزيمتهم أمر مفروغ منه.. كان الصحفيون والمثقفون عنده أفندية.. والديمقراطية لها أنياب والمعارضون له لا يستحقون إلا الفرم.. والدستور لا يستحق العناء.. ولم يكن غريبا أن يصرح لأحمد بهاء الدين فى محاوراته معه: اللى زينا هم اللى بيصنعوا الدساتير يا بهاء، وكل ذلك كوم.. وما فعله عندما أعلن انه سيسافر إلى إسرائيل.. لم يصدم الشعب المصرى الذى أيده عدد كبير منه بعد ذلك فيما فعله.. ولكنه صدم إسرائيل بشعبها

وقادتها ايضا.. فقد احبرهم صاغرين ان يستقبلوه ويتفاوضوا معه بعد أن رفضوا مجرد الحديث معه.. ذهب إليهم وهو يضع حذاءه فوق رقابهم وكان موفقا للغاية عندما أفضى لأنيس منصور بمكنون نفسه بأنه لو كان مكان مناحم بيجين لما استقبله.. فقد «زنقه» فى «حانة اليك» بهذه الزيارة.. فإسرائيل تصرح بأنها تريد أن تعيش فى سلام ولا تكف عن ابتزاز العالم بأن العرب يريدون أن يغرقوها فى البحر.. لكن ها هم العرب يمدون ايديهم بالسلام وهم منتصرون.. وبذلك تبطل حجة إسرائيل. لقد أدرك السادات الفكرة التى تقوم عليها إسرائيل.. وهى ادعاء الرعب من اعتداءات العرب وبذلك تحظي بتأييد العالم.. لكنه ها هو ينسف فكرتها ويبطل حجتها.

لم يقدر أحد ما فعله السادات.. بل سخروا منه وتركوه وحده.. عقدوا المؤتمرات ليشتموه فيها.. ولأن الانتصار كان قد أضاف إلى غروره غرورا وكبرياء فقد قرر أن يترك العرب ليذهبوا إلى الجحيم.. وأخذ يتفاوض لتعود الأراضي المصرية إلى أصحابها بعد نصر حقيقى انجزه بجنوده.. ورغم مرور السنوات فلم تنته المرارة من السادات.. فمازال العرب يحاولون التقليل من شأن ما فعله.. وكان سخيفا ما فعله الشيخ حسن نصر الله زعيم حزب الله عندما قال: إن إجبار إسرائيل على الخروج من جنوب لبنان هو أول انتصار حقيقى على إسرائيل منذ هزيمة ١٩٦٧.. وكأنه اعتبر أن نصر أكتوبر مجرد فيلم سينمائى.. وليس حربا حقيقية.

لقد خدم القدر عبدالناصر عندما وفر له كتابا صاغوا اسطورته وسهروا على بنائها.. لكن السادات خاصمته الأقدار فى ذلك فلم تفيد له كتاب أكفاء.. كانت لديهم أسطورة كاملة الأركان فى رئيس غير مجرى التاريخ أكثر من مرة لكنهم لم يكونوا بحجم الحدث.. وبعمق الشخصية التى قربتهم منها.. فجاءت الكتابات التى تناولت حياته هزلية ضعيفة هى إلى التسلية أقرب.. وقد يكون السادات سببا مباشرا فى ذلك.. فهو لم يعط العيش لخبازه كما يقولون.. وقد يكون ذلك لأنه عمل صحفيا فى بداية حياته.. ولذلك كان يعرف كيف يعمل الصحفيون والكتاب.. تدخل فى عملهم فأفسده وكان هو الخاسر فى النهاية.

ومن جملة ما فعلته الأقدار فى السادات
انها أفسدت فرصة أن
تكون له جنازة أسطورية..
هذا بعد أن اغتيل فى
ذكرى انتصاره فاختلطت
الأحزان بالأفراح. لقد
أعلن الذين فرحوا فى قتل
السادات عن شماتتهم..
وكتب كثيرون عن مظاهر
الفرح والشربات الذى وزع يوم
قتل السادات.. لكن لم يتطرق أحد
لمظاهر الحزن على موته.. فى قريتى
رأيت الناس وهم يتابعون جنازته وهم
يبكون بحرارة.. بل إنهم أعلنوا الحداد
على طريقة أهل الريف.. فأغلقوا
التليفزيونات شهرا كاملا ولبسوا الأسود
عليه.

لقد فرضت الظروف الأمنية أن تكون
جنازة السادات رسمية.. وحضرها قادة
إسرائيل.. ولو فتح الباب ليحضرها
البسطاء كما حدث مع عبدالناصر حيث تم
تأخير دفنه حتى يفد الناس من بلادهم..
لو تم ذلك لكانت الملايين التى أحبت
السادات حضرت جنازته وبكته ولكانت
أضيفت جنازة أساطير إلى كتاب
الجنازات الكبيرة التى شهدها التاريخ
المصرى.. لكن هذا لم يحدث لأن
الأقدار كانت قد قررت أن تمارس
لعبتها مع السادات حتى النهاية.